ينبغي في هذه المرحلة من رحلة «ماني» فتح هلالين. هلالان ينطويان بحدّ ذاتهما على لغز، ولكنهما ربّما كانا مفتاحاً للغز قديم.

كان يا ما كان في قديم الزمان ملكة، ألا تُحكى الأساطير على هذا النحو؟ جميلة وغنيّة وطَموح حتى الذُّرى وموهوبة ذكاء خارقاً، غير أنه كان يتأكّلها مرض لم ينجع فيه أي دواء. وشكت ذلك يوماً إلى أختها التي نقلت إليها أقوال بعض أصحاب القوافل عن معجزات طبيب من بلاد (بابل). وعبّرت الملكة عن رغبتها العارمة في لقائه، وفي الليلة نفسها رأت في منامها صورته وسمعت صوته. وعندما استيقظت في الصباح كانت قد شُفيت. واعتنقت غير دينها.

تلك هي الحكاية المحفوظة في الكتابات المانوية. إن ألف معجزة مماثلة تحبك مسيرة الأنبياء، وفي معظم الأحيان فإن الحكايات عينها تُتناقَل عن عدّة أشخاص وكأنّ الأساطير تنتمي إلى مُلْك مشترك يُمتاح منه من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، ومن مُعْتَقَد إلى مُعْتَقَد. بيد أنه يُعْثَر فيه أحياناً على مِثقال حبّةٍ من الحقيقة، أو على انعكاس مُجَمَّل لحادثة حقيقية.

ونعرف اليوم أن الملكة كانت تُدعى «زنوبيا» [عرفها العرب باسم «الزبّاء»]، وأن مملكتها كانت (تدمر)، وأنها اعتنقت دين «ماني» وحاولت نشره باتّجاه (مصر)، بل حتى أبعد من ذلك. فهل نعرف يوماً بفضل أيّ لقاء؟ ومهما يكن فإن هناك أسراراً أخرى قد تبدّدت. وعليه فقد طالما تساءل الناس عن معتقدات سيّدة الصحراء العظيمة، هي التي كانت تستضيف في بلاطها الفلاسفة واليهود و«النّاصريّين» وتترك للناس أن يمجّدوا في معابد عاصمتها أرباب جميع الأمم. إن نفحة التسامح هذه هي نفحة «ماني».

لقد كانت (تدمر) في عصرها أكثر بكثير من مدينة غنيّة تحطّ فيها القوافل رحالها. فقد كانت تصبو إلى أن تصبح الحاضرةَ العالمية، وكادت خلال عقد من الزمن أن تحجب (روما) ومعها (المدائن). وعليه فقد كان شخص «زنوبيا» هو المنافس المشترك لأباطرة «الشرق» و«الغرب» الذي كسبه «ماني» إلى قضيّته. وإذ